صورة المرأة في رواية (لجوء عاطفي) للقاص عبد الستار البيضاني

الدكتور حسنين غازي لطيف

المقدمة:

كثيرا ما نقرأ عن دور المرأة في المجتمع, وما تؤديه من مهام فهي تشكل نصف المجتمع أو ما يزيد, فهي الام والبنت والزوجة والأخت، ولكن حين نقرأ رواية مثل رواية "لجوء عاطفي "فاننا نجد ان المرأة تشغل حيزا أو مكانا كبيرا في ذهن الروائي ربما يكون أكبر مما شغلته في صفحات الرواية من وصف, وما أريد تسليط الضوء عليه هنا, هي صورة المرأة الحبيبة وسأترك المسميات الاخرى للمرأة لانني أكاد أجزم بما يوحيه عنوان الرواية ومضمونها أن الحبيبة هي المحور الأساس الذي تتحرك عليه بقية عناصر البناء الفني كالزمان والمكان والشخصيات والسرد في هذه الرواية، والتساؤل الذي يطرح نفسه هنا؟ هل اننا سنجد صورة المرأة هي الصورة التقليدية التي تطالعنا في أغلب النتاجات الأدبية أم انها ستتخذ صورة جديدة لم نألفها من قبل هي صورة خلقها خيال الروائي المبدع.

ولورجعنا الى بعض نتاجات القاص "عبد الستارالبيضاني" مثل المجموعة القصصية "قلعة النساء"(١) فاننا نجد التصاقا غريبا بالمرأة وما يحيط بها من أمور, وأتمنى ان نقرأ قبل الولوج في تفاصيل هذا البحث ,لأن للقاص طريقة ذكية في تجسيد صورة المرأة التي يتعلق بها وكأنها هدية السماء اليه، ولا يختلف الحال كثيراً في مجموعتيه "ثنائيات" و"مآتم تنكرية" ولكن روايته التي نحن بصدد دراستها نجد فيها اختلافا في تقنية الوصف والتشخيص في بناء الأطار العام لشخصية المرأة أولاً، والغوص في اعماق هذه الشخصية واستبطانها من خلال طرح الأفكار والحوارات على لسان الراوي بدلاً منها ثانياً، وهو يعرف كل إحساساتها وشعورها بالحنين لفقدانها للحبيب، وهذه الرواية تختمر فيها مجموعة

من الأفكار والرؤى التي تخص المرأة من جهة والأسرة والمجتمع من جهة أخرى، ولايفوتنا أن نذكر ان حواء التي كانت الرحم الأول في البشرية هي التي بدأت الولادة الأولى في العالم فتكونت منها الأمم بشتى أطيافها، وهنا أراد الباحث تسليط الضوء والوقوف بصبر على الصورة الحقيقية التي أراد الروائي تجسيدها بدهاء للمتلقي فهو يتأملها بحب ويصفها بحب ويشتاق لها بحنين مفرط وكأنه أراد إيصال الشعور الحقيقي للعاشق أكثر من محاولة خلق رواية، وقبل الدخول في ماهية الشخصيات وحبكة الرواية أود الإشارة إلى أن الروائي لم يستعمل المرأة كرمز أنثوي ولم يلبسها أقنعة التمويه للتغطية على مغامرات بطله الذي يمثله تقريبا معها, وهذا ما يدفعنا إلى الإحساس بشجاعة وتصالح الروائي مع ذاته فقد ابتعد في روايته عن الترميزوالقناع، وصرح بأكثر من مكان عن أحساس بحاجة مفرطة الى المرأة, وهي لم تزل حقيقة بين يديه، وهو يؤكد سلبية المرأة في التعبير عن حاجاتها الجسدية والنفسية, ويصفها بالخمول والبلادة، وخاصة في مجتمع كالمجتمع العراقي الذي لا تسمح تقاليده بالبوح بأسرار ولواعج الحب والغرام من قبل المرأة بينما يحق للرجل المجاهرة بكل احتياجاته الجسدية من خلال كل الوسائل المتاحة, من دون أن يوجه اللوم إليه أحد ما, وهذه الحالة ليست أعجوبة في المجتمعات الشرقية فالبطولة المطلقة للرجل مهما كان شكله أو وصفه ولا يترك للمرأة الا التنهد سرا للتعبير عما يساورها من شعور بالحب أو الغرام.

المبحث الأول
الصورة الحسية

إن الصورة الفنية عموما بالمفهوم الحديث هي"تشكيل جمالي ,تستحضر فيه لغة الإبداع, الهيئة الحسية أو الشعورية للأجسام أو المعاني, بصياغة جديدة"(٢), وان الصورة الفنية التي يروم الباحث دراستها هنا تنقسم على قسمين رئيسيين هما(الصورة الحسية والصورة المعنوية) والصورة الحسية"هي الصورة التي تتشكل من الصورة البصرية, والسمعية, واللمسية, والذوقية, والشمية, وجميعها لها القدرة على الفاعلية وتحريك الأستجابات المباشرة والعواطف الأولية(٣), ومن المعروف في الدراسات النقدية التي تناولت الصورة الفنية إن النوع الأول هومايتعلق بالأجزاء المادية التي تكون بمجموعها الملامح والشكل والهيئة, والنوع الآخر هو مايتعلق بالصفات التي تمتلكها الشخصية الروائية كالعاطفة والخيال والطيبة والبراءة وحب الخير والسعي له، وهذه الشخصيات تميل عادة إلى الجانب الإنساني في الشخصيات الأيجابية وعلى العكس من هذه الصفات في الشخصيات السلبية التي تتراكم فيها النزعة الشيطانية والبحث عن الشر ومعرفة دهاليزه وحيله, وتكون نهاية شخصيات كهذه الهلاك أو السجن, واذا سلمت هذه الشخصيات من النهاية المأساوية فانها لاتسلم من حصد كراهية المتلقي لها, الذي يكون في نهاية المطاف هو الحكم على العمل الإبداعي.. ولايفوتني ان أذكر هنا قبل استكمال فقرات البحث أنني سأعتبر كلا من الروائي وبطل الرواية "مرتضى قاسم" شخص واحد أو كيان موحد وذلك لأنني لم أجد فارقا كبيرا بينهما داخل البنية السردية في الرواية.

وفي الرواية موضع البحث سنجد صورة المرأة حقيقة مغلفة بالإطار الرومانسي عموما وهي ماتمثله شخصية "روضة" المرأة الطموحة المثقفة طالبة الماجستير التي تنحدر من أعماق الجنوب العراقي فهي من البصرة حيث السحنة السمراء التي تكسو وجوه أهل البصرة وقد حدد الروائي ملامح روضة بهذا الوصف:

"نهضت بقامتك الفارعة تعقصين شعرك فيبدو وجهك مثل (النبق البمباوي) في المرآة تزينه عينان ضيقتان تخفيان خلف عفويتهما عشرات الأسرار والرغبات, وبمهارة الفنان التشكيلي رحت تزينين وجهك لصمت الليل, كنت تبدين جميلة لكنك لم تصلي إلى جمال روحك!(٤).

ويحاول الروائي جاهدا رسم صورة أكثر دقة لملامح هذه المرأة من حيث تقاطيع الجسد والمظهر الخارجي وهي طريقة تستخدم كثيرا في الرواية لتشكيل الهيئة العامة للشخصية أو المظهر العام:

"استدرت يمينا وشمالا لتري نفور نهديك الجميلين ,كانا يصرخان بالشهوة والأنوثة, دعتك المرآة أن تضغطي بطنك ليبدو صدرك أكثر ارتفاعا.. هكذا أجمل أذن؟صورة تشبع شهوة عينيك!.. بعد ذلك فتحت كل قناني العطورالمحلية والمستوردة الخفيفة والثقيلة ورحت ترشين جسدك من رأسك حتى أسفل بطنك"(٥)

والحسرة والمرارة التي يستطيع الروائي تجسيدها في النص تتمثل في حرمان هذه المرأة من الرجل الذي يشاركها هذه المفاتن والجمال والرغبة اذ لا تجد هذه المرأة من تستسلم له أوتضيع نفسها بين أحضانه الدافئة:

"قناني العطر وانفتاح رائحته التي ملأت أنفك جعلت كفيك يدوران حولك بحركات طقسية وكأنها تبخرك من جنون محتمل, وعندما رأيت العطر يسيل من رقبتك وتحت إبطيك هدأت رغبتك التي تشبه الثورة المجنونة, فرحت تبحثين عمن تستسلمين له, فلم تجدي غير الفراش البارد والظلمة الكابية والضوء الطاعن بالشحوب"(٦)

ويتحول الوصف لدى الروائي إلى تشبيه المرأة بالمهرة الشاردة التي تبحث عن الأمان والدفء وأظنه قد أجاد في تشبيهه للمرأة بالمهرة الشاردة لان المهرة هي الفرس الصغيرة السن وكذلك حبيبته "روضة"التي يمتلك اسمها دلالة لغوية رائعة وهو مشتق من الروض وهي الرياض أو الجنة أو الحديقة التي تملؤها الأزهار:

"صدقيني كنت أراك مثل مهرة شاردة أنهكها التطلع إلى الأعلى، تلوي رقبتها دائما باتجاه أفق أوسع، أما عطورك فلم أشمها.. كنت أستنشق عطراً واحداً، هو عطرك الذي أوصله لي القطار"(٧)

والعمل الأكاديمي الذي يمارسه الروائي في حياته الحقيقية كما في الرواية فقد اتخذ بطل الرواية "مرتضى قاسم "مهنة التدريس عملا له تماما,وهي صفة عمل انتفع الروائي منها في جعل شخصية البطل مثقفة جدا ليرتفع بمستوى الحبيبة "روضة "طالبة الماجستير:

أنا خريج كلية الآداب قسم اللغة العربية.. بعد أن انتهت حربنا مع إيران وتسرحت من الجيش عينت مدرسا للغة العربية في إحدى القرى لأتذوق حلم الوظيفة الذي راودني منذ أن دفعني أبي لدخول المدارس الابتدائية.. إنه حلم أبي وأمي زرعاه في رأسي وراح أبي يسقيه بصوره المستقبلية التي هي محض أحلام وتمنيات تملأ رأسه"(٨)

وللبطل هم نفسي كبير يكاد يصبح مرضا مقيتا قد يكون بسبب فراقه من يحب أو لعدم الحصول على جزء يسير من أحلامه المتمثلة بالزواج من روضة وهو محق إن كانت بهذه الرقة والعنفوان والجمال:

"مغادرة الأشياء الجميلة تجعلنا نندم عليها لأننا نتركها من دون أن نشبع منها حتى لو امتلأت بها مسامات أجسادنا.. هناك ندم يشبه الجرح.. وهو جرح لا أستطيع أن أصفه لك أو أوصل صورته إليك.. أعتقد أنك ستفهمني بشكل خاطيء..... أتذكر عينيها اللتين تشبهان خفقة طائر... كانت لينة ودودة في كلامها ونظراتها منذ أن التقينا أمام بوابة مستشفى البصرة العسكري.. كانت جميلة جدا"(٩)

وهذا الشكل الظاهري الجميل لروضة يكتنز في داخله جمالا آخر وهو الوفاء للحبيب فقد اخترقت ارض المعركة للإطمئنان على من تحب وهو نائم في موضع حقير في الخطوط الأمامية من أرض المعركة:

"هي مزيج من النقاء والحب, والمشاعر الهجينة العرجاء يغلفها وفاء صادق جعلني لا أفكر للحظة بجرح مشاعرها أو استغلالها لحساب رغباتي وأنسى رجولتي.. كانت مخلصة لحد التضحية... تصور يادكتور عندما اشتدت إحدى المعارك في شرق البصرة وغبت أياما طويلة فوجئت بها تخترق خلفيات القطعات العراقية بجرأة كبيرة وتصل إلى وحدتي المتقدمة حاملة معها قدر (البرياني)المتبل.. هل تتصور كيف التقتني والتقيتها؟"(١٠)

ويرى"مرتضى قاسم" في روضة التي هي حبيبته التي لم تمنحه أي شيء من الجنس أوالتواصل الجسدي رمزا لكل نساء البصرة, في تساؤل مشروع يطرحه الروائي على نفسه ويجيب عن سؤاله:

"لماذا تملأ هذه المرأة كياني؟ انتهيت في تلك الليلة إلى نتيجة واحدة هي أن روضة لم تكن سوى رمز لكل نساء البصرة اللواتي أحببتهن ومنحنني الإحساس الحقيقي بالحياة؟ ربما لهذا السبب أيضا انتهت العلاقة بين جسدها ومخيلتي"(١١)

ونجد في وصف صحيح ومقارب للواقع عن شكل المرأة في البصرة التي تمثلها روضة كرمز من رموز النساء في البصرة حيث تكون السحنة سمراء ويكون لون الشعر أشقر:

"- هل أنت خلاسية؟

مامعنى خلاسية؟

أهو شيء سيء أم جيد أن تكون المرأة خلاسية ؟..

انا أحب؟ النساء الخلاسيات.. الخلاسية هي المرأة الشقراء بملامح زنجية. قد تكون عيناها ملونتين وشعرها أصفر لكنه جعد مثل شعرك.. هي خليط الملامح الأوربية والأفريقية"(١٢)

ولقد استطاع الروائي أن يربط بين القطار ومايثيره في رأس بطل الرواية"مرتضى قاسم" من صداع وألم, يكاد ينفجر من شدة الألم, وبين اشتياقه لروضةالتي تبعدعنه مئات الأميال ولايربط بينهما الا هاجس الأفكار والحنين العذب المفرط, ولهذا القطار الذي يعمل عليه والد مرتضى السيد قاسم وهو فني أو ميكانيكي قطارات ويتحدث البطل عن القطارعندما شاهده الناس لأول مرة فقدعدّوه وقتذاك من الجن:

"- الكثير من الناس يعدّون القطار من الجن.. صوته يشبه العويل ودخان يطلق برهبة وتحذير باتجاه السماء, وعربدة تهز الأرض.. وكتل ضخمة من الحديد تتلوى بسرعة مثل أم (الأربع وأربعين) بعضهم يسميه أفعى الحديد المتوحشة(١٣)

ومنهم من يذهب إلى أبعد من ذلك فقد عدّه البعض شيطانا وهي محاولة من الروائي لتحميل القطار الذي التقى فيه من يحب أكثر من صورة وأكثر من مكانة:

"- السلطان العثماني عبد العزيز أيضا عدّ القطار شيطانا ورفض ركوبه عندما شاهده لأول مرة عند زيارته إلى مصر عام ١٩٦٣م, يقال أنه خاف وذعر منه ولم يركبه, إلا بعد أن أقنعه ناظر المحطة والخديوي إسماعيل أنه واسطة نقل مثل الخيل والحمير"(١٤)

وما يهمنا فعلا هو كيف ينظر الروائي إلى القطار كرمز من رموز الحياة فانطلاقه يمثل الميلاد وبدء الحياة وتنقله يمثل رحلة حياة الإنسان في أيامه، ووصول القطار إلى محطته الأخيرة يمثل النهاية الأكيدة لكل شيء وفي الرواية كانت البصرة هي المحطة الأخيرة لبطل الرواية حيث التقى "روضة":

"أهرب خلف القطار الذي مازال يسير في رأسي ويصفر صفيرا فيه شيء من الألفة, صفير يدعوني لأستيقظ من أجلك فأبقى مشدودا إليك وأنت تستلقين على سرير النوم في القطار, أو وأنت تطلين من نافذته تحاولين طرد التعب.. مفاصلك يابسة, وريقك لزج وعيناك شبه منطفئتين من أين جئت؟"(١٥)

وأغرب من هذا مايتخيله الروائي من شعور الكائنات الحية عدا الإنسان تجاه القطارومسيره في الصحراء وهذه التفاتة مهمة من الروائي للتعمق في تجسيد ثيمة القطار وما يتعلق به:

لكن هل تعلم ياعم فعلا أنا لاأستطيع أن أتخيل القطار وسط الصحراء إلا شيطانا ناريا منفلتا من قبضة الزمان والمكان.. تخيل انطلاقه المجنون وسط الصحراء ليلا وفي أعلى مقدمته كاشفة الضوء كأن ضوءها نيران تتدفق وتزيح الظلمة من أمامه ترى كيف تنظر كائنات الصحراء إلى هذا الكائن المقرقع المعربد الذي تتدفق منه مع سحابات الدخان التي ينفشها خلفه؟"(١٦)

وأظن أن مايمثله القطار في الرواية هو ماأراده الروائي أن يجعل من سكة الحديد التي تمثل لديه خارطة حياته المتنقلة بين بغداد والبصرة على وفق انطلاقة أسبوعية وهو يتأمل كل تفاصيل القطار بمعنى آخر أن السكة في الرواية هي مايمثل المعادل الموضوعي للمرأة فهو يسير على وفق منحنيات المرأة كما يسير القطار على تعرجات السكة وكما تضغط المرأة على حرية الرجل وتقيدها, فهذا القطار يضغط برأس البطل "مرتضى قاسم "ألما وصداعا:

"كما أنها الفكرة الوحيدة التي يمكن أن أعول عليها في إيقاف هذا القطار في رأسي.. عصبت رأسي بكفي وضغطته وكأني أعصره لأخلصه من الألم, الم مضغوط يدق على أعصابي مثل المطارق, ويضغط على أعلى رقبتي فيوشك على الاندفاع إلى جسدي.. ربما سيمزق رقبتي ويجتاح جسدي"(١٧)

وحين نبحث بدقة عن الصورة الجميلة التي يرى بها "مرتضى قاسم"حبيبته روضة في أكثر من موضع في الرواية وسنحاول الإحاطة ببعضها لأن مايهمنا في البحث هو الصورة الحسية والمعنوية للمرأة في الرواية التي نراها متنوعة وحاضرة دائما في كل المشاهد الوصفية والمقاطع السردية:

"ليست كل امرأة.. لها انتصاب قامتها الفارعة وجسدها الممشوق لكن هل بقي جسدها بهذه المواصفات بعد كل هذه السنوات؟ أم أن الحصار أتلفها كما أتلف الكثير من الأشياء الجميلة "(١٨)

ونجد صورة أخرى نتأملها لـ "روضة" تتحقق فيها غائية الروائي والبطل اللذان يمثلان وجهان لشخصية واحدة أو شخصيتان منشقتان عن أصل واحد, وأظن أن عملية التقارب الفكري والفني بين الروائي وبطل القصة نتجت عن حرفة في الصنعة الأبداعية المتمكنة وما شخصية حازم الصديق الوحيد للبطل إلا صورة أخرى منشقة عن شخصية الروائي أيضاً, وكما تعددت وجوه شخصية الروائي بأشكالها فقد تنوعت صور الحبيبة روضة ودلالاتها في أكثر من موضع:

"أستعيد وجهها البيضوي وخصلات شعرها التي تداعب خديها المنتفخين مثل ثمرة خوخ تختلط الألوان فيه وتمنحه صوت النارالملتهبة.. يومض وجهها بكل الفتنة على وجوه النساء اللواتي أمر عليهن سريعا في صالة الانتظار"(١٩)

وصورة أخرى فيها انتقاد صريح لما ترتديه روضة من ثياب ووضعها الماكياج بإفراط الأمر الذي جعل "مرتضى قاسم" ينزعج من هذه الهيئة:

كانت تضع الماكياج على نحو يخرجها من من دائرة البراءة, وترتدي ملابس وضع فيها خياطها كل مهارته لكي تبرز مفاتن جسدها وتخاطب غرائز الرجال, قميصها الأبيض الذي يشبه راقصات غجر أوروبا تعيد ياقته الى الخلف فيبرز صدرا مكتنزا يستصرخ كفي لكي تحطا عليه, في لحظة عابرة اشتهيت أن أمسك النهدين أو أضع أنفي بينهما "(٢٠)

وهذه إحدى الصور الأخرى التي تحول الخيال الإبداعي إلى واقع واتصال جسدي بين طرفين ومع مشاركة ورغبة جامحة كل من "مرتضى قاسم و"روضة":

"لأول مرة اكتشفت بياض جسدها, ولأول مرة فكرت أن التي أمامي يمكن أن تلامس حواسي النائمة منذ سنوات, ويمكن أن تكون مشروع فراش جاهز. امرأة وحيدة بهذه المواصفات وهذا التحرر حتما ستكون مرصودة من قبل الذئاب الجائعة، قرأت في عينيها أكثر من مشهد لذئاب افترستها من قبل"(٢١)

وفي صورة أخرى تتحول الشهوة الجسدية إلى حب خالد أصيل متأصل, فلم تعد صورة الجسد مايشغل بال وفكر البطل بل تحول إلى أمر آخر هو الحب المتجذر في نفسه:

"منذ هذه اللحظة رفعت صورة جسدها من رأسي, ونزعت شهوتي من جسدي, لم تعد جميلة أبدا, لكنها دخلت قلبي ومنحتها لقب حبيبتي لم أجد فيها بعد الآن ما يستطيع أن يحاور غرائزي. لقد ذهبت إلى روحها وأمسكتها بنبضات قلبي روح

ذهبية مبللة بالضوء تحوم حولي وترسم لي فضاء من النقاء, اطل عليه من خلال عينيها الضيقتين"(٢٢)

ونجد صورة أخرى يرسمها الروائي يستطيع من خلالها أن ينجز مايعد به في أكثر من موضع ولا نجده إلا في نهاية الرواية إذ تحقق الاتصال الجسدي وهو ما كان يصبو إليه "مرتضى قاسم "في خياله دوما مع "روضة" حين نزلت ضيفة في بيته لإكمال مناقشة رسالة الماجستير, وهذه الصورة استطاع الروائي أن يجسد فيها أحساسا عاليا مرهفا بالحب:

أزحتها قليلا من السرير لكي أعتدل في جلستي، دفعتني برفق, أمسكت يدها أردت في البداية أن الويها ممازحا إياها.. من دون قصد سحبت يدها إلى فمي وقبلتها، ومن ثم رحت أدس أصابعها في فمي وأرضعها مثل الطفل ,كأني أشبع نفسي من بركات هذه اليد التي أطعمتني كل ماهو جميل وشهي"(٢٣)

والمتأمل لصورة المرأة في الرواية يجدها مختلفة عن التي تطالعنا في الروايات الأخرى, فهي صورة رسمت بأنامل العاشق المتخيل بدلاً من الروائي المحترف ومايتمازها الشفافية والرقة والحب المطلق, الذي يمكن استشفافه بيسر وسهولة من خلال استقراء فصول الرواية وتقليب صفحاتها, ويمكن للرواية أن تكون عملاً فنياً متكاملاً حتى من دون الحبكة المفتعلة التي حاول الروائي إقحامها استكمالا لعناصر البناء الفني في العمل الإبداعي الروائي, والصفة التي تلازم الروائي في هذا العمل هي الاحتياج النفسي والفكري والجسدي, وهو احتياج فطري للجنس الآخر إلا أن الروائي سخره جاهدا لخدمة الثيمة الروائية من حيث الفكرة العامة, التي صنع منها الروائي أكثر من مشهد فهو يتغنى باسم "روضة"حتى على لسان صديقه "حازم":

"وأعرف أيضا رهافة حس صديقي, عندما يمر عليه ذكر "روضة"أو حتى ذكر البصرة يتوقد كل شيء فيه للحظات ومن ثم ينطفي منطويا على رماد حزن شفاف لا أحد يستطيع أن يراه.. ذكر اسم روضة يذبل ألق عينيه مثلما تذبل لمسات الأصابع طراوة القداح."(٢٤).. ولقد استطاع الروائي التوغل إلى أعمق من الحب المتدفق من خلال عباراته التي تتميز بكونها تمتلك لغة شعرية عالية تكاد ترقى إلى مستوى النص الشعري وان لم تكن شعراً, ولقد وجد الروائي في الأحلام والتخيل ومحاولة التواصل من خلال الحلم المنفذ الوحيد لآماله الضائعة:

"كان مجيئها إلى بغداد ضرباً من الأحلام, أو المستحيل الذي يقوده إلى الركض في ماراثون أحلام العشاق, وهذا يحدث عندما يلتقيها في بغداد،كنت أخوض في أحلام لاقرار لها وقلت له يوما أنك رجل, لاتصلح لغير الأحلام"(٢٥)

ويجعل الروائي من الفراق المهيمنة الأساسية في الرواية فالبطل مفارق لحبيبته قبل أن يرتبط بها وهو في واقع النص الروائي لم يرتبط بها بل هجرته "روضة "وسافرت إلى دولة الامارات العربية المتحدة وهي نهاية مثالية لمثل هذه الرواية:

"فكلما قابلها كان يقول لها أنه يقرأ في عينيها تفاصيل فراق مرير.. ترى هل يصح أن عاشقا مثله يملأ زمن لقاء حبيبته باستدراج الأحزان لها قبل أوانها ؟ قدرت أنه ربما غامر الى البصرة لكي يراها قبل هجرتها إلى دولة الأمارات العربية المتحدة"(٢٦).. وحين يستدرج الروائي القاريء الى قدرته وتمكنه من أدواته السردية وقدرته على استخدمها بذكاء فهو يصور لك مشهدا يجعلك تشاهده من خلال العاطفة الجياشة التي تتدفق بين كلماته ومحاولة جعل وجهه مرآة عاكسة لوجه حبيبته التي تجلس أمامه:

"ولا أستغرب عندما التقيها الآن وهي في غاية التماسك, تشع قوة وعطفاً, هكذا تمتزج الأحاسيس والمشاعر في عينيها وفي نبرة صوتها وظلها الذي يغمرني مثل ضوء المساء, وفي مسامات وجهها التي تنفتح أمامي مثل نجوم غائرة في سماء صافية – الله كم أحبها-.. هكذا هي دائما"(٢٧).

ويجد الروائي للفراق رائحة فهو على يقين انه سيفارق مايحبه ويتمناه, هي رائحة يستهجنها قلبه وتشمئز منها نفسه, وهو الوحيد فعلا الذي التفت لهذه الرائحة:

"مسافرون منفردون يدخنون بصمت حزين رائحة السجائر تختلط برائحة الرحيل أشمها وتملأ أنفي, ربما أنا الوحيد الذي يعرف أن للرحيل رائحة تسري في أعصابي وتجعلها ترتجف تحت جلدي "(٢٨)

ولقد استطاع الروائي أن يتصرف في حبكة الرواية من خلال المزاوجة بين فكرة الحرب والحب فلقاء الحبيبة لديه يمثل السلام والطمأنينة وفراقها وبعده عن "روضة"يمثل الحرب والقلق النفسي:

"لكن الحرب.. ذهبت الى الحرب بعد تخرجي من الكلية مباشرة لاأملك سوى الأمل في أن أعيش أشهراً إضافية, فقد كنت هناك على حافة الموت, اقتطع من أجازتي أياما مع حبيبتي في البصرة"(٢٩)

ويتمكن الروائي من المزاوجة بين هول المعركة وأقدام الحبيبة للوصول إلى "مرتضى قاسم"وهو في ساحة المعركة في الخطوط الأمامية وفي هذا المقطع تتوضح الصورة الحقيقية المعنوية للحب ولإصرار روضة على لقاء من تحب:

"عندما اشتدت احدى المعارك في شرق البصرة وغبت أياما طويلة فوجئت بها تخترق خلفيات القطعات العراقية بجرأة كبيرة حاملة معها قدر (البرياني) المتبل.. هل تتصور كيف التقيتها بلا أشواق ولا حرقة "(٣٠).. وحين وصلت إلى موضعه تسمرت في مكانها وضاعت منها كل كلمات الحب والشوق والغرام, ولم تحتضنه كما كان يتصور حبيبها بل بادرته بكلمات تدلل على مقدار حبها له لكن بصورة مبطنة:

"أطلت برأسها من باب الموضع وقالت: بلهجة بصرية صافية نايم نامت عليك طوفة.. أن من يغامر ويخترق هذه المساحات المسكونة بالموت والشظايا والدخان حتما سيحتضن حبيبه ويبكي على أكتافه، أو على الأقل – يكلمه بكلمات مبللة بالأشواق ،لكنها كانت هكذا جامدة حتى عينيها فقدت تلك الليونة ,بقيت ربع ساعة، وغادرت قائلة: (هكذا اطمئن قلبي. تصورت انك مت لأخلص منك..)"(٣١).. وماتركته الحرب من أثر بالغ في نفس "مرتضى قاسم"فقد محت الحرب من ذاكرته طفولته وذكرياته الجميلة إنها ذبحت طفولته حسب تعبيره:

"كأنني أراك بجبهتك العالية وقميصك الأبيض، تمسحين عني غبار الغربة ووحشة الليالي التي أقضيها مع أحلام ذبحتها الحرب ربما أمسكتك منذ تلك اللحظة، (هل تعلمين أن أول شيء ذبحته الحرب في رأسي هو تلك اللحظات الحياتية الرائعة التي كنت أقف فيها تحت تمثال السياب بانتظار العبارة المحملة بالنوارس)"(٣٢)

المبحث الثاني
الصورة المعنوية

وهي القسم الثاني من الصورة الفنية التي يجسدها الروائي في هذا النص موضع الدراسة, إذ تحتاج الى التخيل أكثر من حاجتها إلى الحواس لإدراكها من قبل المتلقي, وهي غالبا ماتتعلق بالميول والطباع التي جبل عليها بنو البشر, بسبب التكوين النفسي والتأثير البيئي الطوبوغرافي وتتعلق بمكامن الذات الإنسانية وما يحيط بها من خلجات وأحاسيس قد تطغى آثارها على الصورة الحسية.

ويمكن التقاط ملامح ومعالم الصورة المعنوية, من خلال تتبع السمات والصفات التي تتميز بها "روضة" بطلة القصة كالعاطفة الجياشة والحس المرهف والرغبة في الحب لا الجنس التي تتدفق من خلال توصيفها في أكثر من موضع من قبل الروائي بلسان بطل القصة "مرتضى قاسم" وهو يصرح ويتأوه لحرمانه من لقاء حميمي يجمع بينهما فهي امرأة ترمز للنقاء الأنثوي:

"لماذا تملأ هذه المرأة كياني؟ انتهيت في تلك الليلة إلى نتيجة واحدة هي: أن روضة لم تكن سوى رمز لكل نساء البصرة اللواتي أحببتهن ومنحنني الإحساس الحقيقي بالحياة؟ ربما لهذا السبب أيضا انتهت العلاقة بين جسدها ومخيلتي"(٣٣)
ومايميز "روضة"من ناحية أخرى هو الشخصية المستقلة وعدم الخضوع لهيمنة الرجل عليها وهي صورة من صور المرأة المتحررة من عبودية الرجل,حتى لو كان حبيبا أو زوجا فقد نبهت أو اشترطت أن لا يغار عليها"مرتضى قاسم" حال بدء علاقتهما:

"- يعني تقبل أن يشاركك أحد في..

قالتها وضحكت وكأنها تنبهني إلى خطأ غير مقصود.. لكنني في الحال تذكرت شرطها الوحيد عندما تصارحنا بحبنا فاستعملته لأبطال كلامها:

-أنت التي اشترطت عليّ عندما أعلنت حبي لك أن لا أغار عليك.."(٣٤)

ومن الصفات الأخرى التي تميزت بها الصورة المعنوية لـ"روضة "الرومانسية الحالمة وهي جزء لايتجزأ من صفات أغلب النساء لكنها على الرغم من إدراكها أو لنقل تيقنها إن حبها أوارتباطها ب"مرتضى قاسم" بعلاقة حب هي تجربة فاشلة إلا أنها قررت التآمر على نفسها لتعيش التجربة بكل ما فيها من ألم ومرارة أو فرح وسرور:

"الحلم الذي ولد بيننا في لحظة طارئة وراح يمسك بنا ويملأ قلوبنا بالبهجة ويمنحنا أحساسا عظيما بالحياة لم نحس به من قبل – أو أنا لم أحس به بعد ذلك مطلقاً.. هذا الحلم تركناه ينكسر في فراق قاهر كنت توقعته من أول لحظة شعرت فيها بصورتها تنطبق على شغاف قلبي"(٣٥)

ويمكن القول: إن روح المغامرة هي من الصفات التي تتجسد في الصورة المعنوية لشخصية "روضة" والإصرار على رأيها والتمسك به حتى لو كان يجانب الصواب:

"هي أيضا خامرها الإحساس نفسه لأسباب لاأعرفها فقد تواطأنا ضد بعضنا برضاها.. وهذه قضية لاأعرف لماذا ارتضينا أن نتحمل وزرها.. ربما كنا سنجعل النتائج أفضل لو أننا تخلصنا من لعبة التواطؤ ضد أنفسنا. ربما كانت هي الأقوى مني لاتعرف الارتباك "(٣٦)

ومن صفات الصورة المعنوية التي تنماز بها "روضة"أيضا الوضوح والشفافية فهي كالكتاب المفتوح أمام من تحب لايمكنها أن تخفي مشاعرها وتكاد عاطفتها تشع من عينيها:

"هي في غاية التماسك تشع قوة وعطفاً, هكذا تمتزج الأحاسيس والمشاعر في عينيها وفي نبرة صوتها وظلها الذي يغمرني مثل ضوء المساء, وفي مسامات وجهها التي تنفتح أمامي مثل نجوم غائرة في سماء صافية - الله كم أحبها؟- هكذا هي دائما"(٣٧)

وتلك الصفات التي تتربع على عرشها صفة الأنوثة التي يمكن أن نلاحظها بوضوح من خلال تحليل محتوى رسالتها إلى "مرتضى قاسم" الرجل الذي تحب, تلك الرسالة التي استلمها حين سافرت من دون وداع, وهذا ما كانت تتمناه لأنها لاتطيق لحظات الوداع فالمقطع الأول من الرسالة تعلن فيه التوحد مع من تحب والحاجة الأنثوية المعنوية, لرجل يحتضن روحها, ويسمو بها إلى أعالي السماء:

"نعم.. لك وحدك.. نعم لعينيك الهادئتين, لشفتيك الوادعتين... لسموك الذي يتربع على عرش لحظاتي الحالمة.. أيها الطائر الخرافي الذي كلما حل على سمائي تناثرت حبات النور فوق رأسي..."(٣٨)

وفي المقطع الثاني من الرسالة تبوح "روضة" بما تقدسه المرأة من حب عظيم لمن تحب فتطلق على من تحب لقب الطائر الخرافي الذي بحضوره أمامها

تتساقط حبات النور بما تحتويه من قبل وحنان وحب, وهي تدعوه الى أن يقيما مملكة للحب الخالص لوحدهما لا ينازعهما عليها أحد:
"تلك الحبات التي تحتوي كل واحدة منها على ألف همسة، وألف قبلة تمسح عن جبيني غبار الشجن.. أقولها بصمت فتنطلق مدوية في المسافة الأزلية بيني وبينك.. فتعال نبني مملكتنا الخاصة"(٣٩)

وما أطلقه"مرتضى قاسم" من رأي بعد قراءة الرسالة عشرات المرات يؤكد ماذهبنا إليه في أن هذه الرسالة تتسم بدعوة الأمل الدائمة للحب التي لاتنتهي بمجرد تباعد الجسد فروحيهما متقاربة على الرغم من ابتعاد جسديهما:
"أمسكت الجملة الأخيرة من كتابتها بكل جوارحي, فهي الدعوة الدائمة للأمل, وهاهي قد جاءت بموجبها يناديني عطرها مع قطار الفجر.. اكتفيت بهذه الورقة كصورة رائعة وشفافة تجنبني وتجنبها مرارة الوداع"(٤٠)

نجد في الرسالة التي استعرضنا أن كلا من "روضة"ومرتضى قاسم" يمتلكان حساً مرهفاً ودفئاً في المشاعر الإنسانية وحاجة متجذرة في أعماق الذات ولديهما رغبة مطلقة بلا حدود للعيش بحب والنيل بشغف من بحر معاناة الحب, ومن الصفات التي نستطيع التقاطها في الصورة المعنوية التي يجسدها الروائي على لسان بطله باستعمال تقنية راوي الدرجة الأولى الذي يتكلم بضمير المتكلم, هي التوازن التام بين جمال "روضة" الحسي والمعنوي فكل جزء من أجزاء جسدها الظاهر يشير إلى جمال داخلي أروع وهذا مايترآى من خلال استقراء هذه الصورة الحسية المعنوية معا:

سقطت مني نظرة هاربة على يديها المتخالفتين على كتبها المستقرة فوق فخذيها اللذين ضاقا ببنطالها.. أكمامها البيض أحاطت كفيها مثل أوراق وردة بيضاء, فبدت اصابعها المستدقة مياسم ورد حليبية اللون, غمرني المنظر بالبهجة، رحت أسرق نظرات خاطفة وسريعة تطبع الصورة في ذهني وكأنني أتخيلها فأحاول التأكد من وجودها بين لحظة ولحظة"(٤١)

وأجد في بعض العبارات الواردة في نصوص الرواية لغة شعرية متكاملة تكاد ترقى إلى مستوى النص الشعري في التشبيه والوصف والإيحاء, ولننظر إلى تشبيه العينين بنهر يضحك وهو تشبيه لم يتطرق إليه أو يستعمله أحد قبله:
"ونظرت في عينيها,فرأيتهما مترعتين بالابتسامة مثل نهر يضحك... عينان ضاحكتان"(٤٢)

وأجد أن اللغة تسمو لديه في تجسيد الصورة المعنوية حتى لو كانت الدلالية حسية فبعد أن شبه الروائي عينيها بنهر يضحك, يشبه بريق عينيها مثل نهر من ضوء مقدس:

"بريق عينيها مثل نهر من ضوء مقدس معلق في السماء يحرضه على الإمساك بالذكرى – لماذا علي التمسك بالذكرى وحدي"(٤٣)

وأجد أن الروائي قد استطاع أن يصنع تشكيلا جميلا للصورة المعنوية من خلال ربط الجانبين الحسي والمعنوي في نص واحد وذلك بربط الظاهر المرئي من جمال روضة بالمستور المختفي الذي يشاهده من خلال عيني البطل وهي عيون المحب العاشق:

كانت جميلة جدا لن أصفها لك لسببين الأول أني لن أتمكن من ذلك والثاني إن كل العشاق يرون حبيباتهم جميلات, لكن الذي بهرني ذلك البياض الذي يشبه نتف الغيوم, وشفتيها الذائبتين, صدقني في كل لحظة أتصور أن شفتيها ستذوبان في فمها لفرط رقتها"(٤٤)

الخاتمة

يستنتج الباحث من دراسته أن أهم ماخلق الله في الوجود هو النفس الأنسانية، وأجمل ما خلق الله في الوجود هي المرأة بكل أشكالها وألوانها, وان الذي يعرف معنى لفظ (المرأة) مؤكد أنه يعرف كيف يتعامل معها ويحبها ويخشى عليها. وقد شبهها النبي الكريم محمد(ص) بالقاروة لرقتها, والرواية التي حاولنا أن نستخرج منها ملامح ومعالم الصورتين الحسية والمعنوية, هي أنموذج إنساني للحب قبل أن تكون عملا أبداعياً فنياً, فالروائي المرهف الحس المتقن لأدواته الفنية على الرغم من محاولاته الكثيرة للتمسك بحرفة صناعة الرواية وتقنيات العمل الابداعي, إلا أن عاطفته الجياشة تتفلت من بين سطور الرواية تجاه من يحب وهي "روضة" التي يدلل اسمها على الجمال والرقة, وشخصيتها على الثقة بالنفس والطموح وحب الحياة والمغامرة, فالرواية أصبحت عالما تمطر سماؤه بالحب وتنبت أرضه بأزاهير الشوق .

لقد استطاع الروائي فعلا أن يمنح "روضة" حياة تعيش بها وتتحرك بها داخل المكتب وفي البيت وفي الشارع، كأنها كائن حي مشاهَد, لأنه يمزج بين الخيال والواقعية إلى حد كبير, لدرجة يصعب الفصل بينهما, ولقد رسم الروائي للبطل"مرتضى قاسم" مسارا للتحرك بحرية مطلقة له نقطة بداية وهي موقع محطة القطار قرب بيته المتواضع, وليس له نهاية بل ترك الأمر للمتلقي الذي يدرك الروائي بمشاركته لأحداث الرواية, أن يضع النهاية التي يختارها للبطل، حتى حين سافرت "روضة" لم تكن هذه النهاية لأن المكان الذي سافرت إليه لايبعد عن البصرة كثيراً, وقد حقق الروائي ضربة أو نقلة فنية قوية باستعمال سكة القطار المتعرجة التي تمتد من بغداد إلى البصرة كرمز وشبهها بحياته التعيسة المتعرجة بالحزن والإخفاقات الكثيرة, كأي شاب معدم تلاحقه أسطورة الالتحاق بالحرب للدفاع عن الوطن, وسط الشظى والبارود الذي يتناثر في المواضع الأمامية لجبهات القتال, ولقد استكملت الرواية مقومات العمل الإبداعي، ولو كان بالإمكان أن نطلق عليها الرواية الشعرية لأنها تمتلك كما كبيراً من العبارات والمقاطع الوصفية الشعرية, أو التي تمتلك قدراً عالياً من الشعرية، واتساءل لو كان المؤلف شاعراً كيف سيكتب عباراته, انه يجعل المفردة تترابط مع العبارات والسياقات التعبيرية بصورة تدلل على قدرة عالية في استعمال المفردة, وقدرة على أن تكون المفردة لديه مشحونة بالعاطفة الجياشة, وهذه

الأحداث حتى لو كانت خيالاً لمبدع فقد جسدت معاناة إنسانية ليس لفرد واحد في المجتمع العراقي بل معاناة جيل بأكمله أكثر مايميزه الحرمان والسكوت على الظلم خوفاً على الحياة.

ونستتطيع القول: أن القاص عبد الستار البيضاني بهذه الرواية جسد صورة جديدة للمرأة تختلف من حيث طريقة تقديمها للقاريء وتختلف أيضا في طريقة التعامل معها بشفافية وحب مطلق, إنها الصورة المثالية للمرأة أو الفتاة العراقية التي لايميزها الأ السحنة الداكنة أو السمرة, وانحدارها من أرض النخيل أرض السياب والعشار وأم البروم والحيانية وأسواقها وبسطاتها البسيطة المتواضعة، وأجد ان الروائي قد وفق كثيراً في هذه الرواية, وقد تغيرت أساليبه وتقنياته السردية عن ما الفيناه من خلال استقراء مجاميعه القصصية التي أشرنا اليها, في مقدمة البحث, وأخيرا نقول أن ما قدمناه من جهد هو اجتهاد شخصي للباحث وهو يمثل وجهة نظر استنتجت من خلال الاستقراء والتحليل, ونسأل الله ان نكون قد قدمنا للنص مايكافيء مستواه الفني, وللعلم مايحسب درجة في مجال البحث الأكاديمي والتحليل النقدي, والله من وراء القصد.

الإحالات والهوامش

١-القاص عبد الستار البيضاني ,ولد في بغداد عام ١٩٥٨ ، بكالوريوس أعلام ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، صحفي ، صدر له

- اصوات عالية ،مجموعة قصصية مشتركة ، ١٩٨٣م.
- قلعة النساء ، قصص ١٩٩٠.م.
- الثنائيات قصص,١٩٩٣م.
- مآتم تنكرية، قصص، ٢٠٠٠م.
- عطش على ضفاف الدانوب،رواية ٢٠٠١م
- لجوء عاطفي ,رواية,٢٠٠٤م.
- الزاوية والمنظور,حوارات قصصية,٢٠٠٢م.

٢- الصورة الفنية معيارا نقديا ,د.عبد الأله الصائغ, دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ، ط١، ١٩٨٧م، ص١٥٩

٣- المثيرات الأدراكية في تشكيل الصورة الشعرية-عاتكة وهبي الخزرجي- انموذجا، د.كريم حسن جنانة ،بحث منشور في مجلة كلية الآداب, الجامعة المستنصرية,العدد ٤٨، ٢٠٠٩م ١٤٣٠ ،ص٢٤٣.

٤- رواية لجوء عاطفي,للقاص عبد الستار البيضاني, دارالشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ٢٠٠٤م، ط١، ص ٩.

٥- نفسه ، ص٩

٦- نفسه ، ص٩

٧- نفسه ، ص٩

٨- نفسه ، ص١٠٨

٩- نفسه ، ص ١١٣

١٠- نفسه ، ص١١٦

١١- نفسه ، ص٨٢

١٢- نفسه ، ص٨٣

١٣- نفسه ، ص١٤

١٤- نفسه ، ص١٤

١٥- نفسه ، ص١٨

١٦- نفسه ، ص١٥

١٧- نفسه ، ص٧٥

١٨- نفسه ، ص٧٦
١٩- نفسه ، ص٧٧
٢٠- نفسه ، ص٨١
٢١- نفسه ، ص٨١
٢٢- نفسه ، ص٨١
٢٣- نفسه ، ص١١٦
٢٤- نفسه ، ص٩٥
٢٥- نفسه ، ص ٩٥
٢٦- نفسه ، ص٩٦
٢٧- نفسه ، ص٦٤
٢٨- نفسه ، ص٧٦
٢٩- نفسه ، ص١١٢
٣٠- نفسه ، ص٧٦
٣١- نفسه ، ص١١٦
٣٢- نفسه ، ص٣٠
٣٣- نفسه ، ص٨٢
٣٤- نفسه ، ص٤١
٣٥- نفسه ، ص٦٣
٣٦- نفسه ، ص٦٣
٣٧- نفسه ، ص٦٤
٣٨- نفسه ، ص ٨٨
٣٩- نفسه ، ص٨٨
٤٠- نفسه ، ص٨٨-٨٩
٤١- نفسه ، ص٥١-٥٢
٤٢- نفسه ، ص ٥٣
٤٣- نفسه ، ص٩٧
٤٤- نفسه، ١١٣